Kütüphanesi
İslâm Araştırmaları Merkezi

رسائل
إخوان الصّفاء
وخلّان الوفاء

الجزء الأول

إعداد وتحقيق
الدكتور عارف تامر

منشورات عويدات
بيروت - باريس

Kütüphanesi
Demirbaş No: 30154-1
Tasnif No: 181.2 R.F.S.İ

جميع حقوق الطبع محفوظة لـ
منشورات عويدات
بيروت ـ باريس

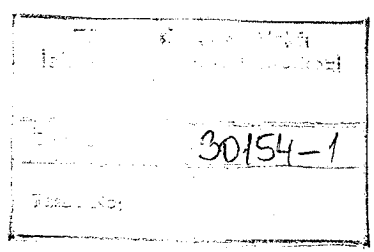

الطبعة الأولى ١٩٩٥م ـ ١٤١٥هـ

الحقيقة
في رسائل اخوان الصفاء
وخلان الوفاء

بقلم
الدكتور عارف تامر

قد يكون من الصعوبة بمكان ، إحصاء عدد الكتّاب والباحثين الذين تناولوا رسائل إخوان الصفاء ، وخلّان الوفاء بالبحث والدراسة والنقد والتحليل . سواء أكانوا من العرب أو من المستشرقين ، لأن مثل هذا الإحصاء يكلّف جهوداً ويأخذ وقتاً ، وقد لا تفي به مئات الصفحات ، وخاصةً إذا ما أردنا استعراض هذه البحوث ، ووضعها على مائدة النقد والتحليل .

في هذه المقدمة لا بد من كلمة ثناء نوجهها لأولئك الذين أبدعوا وأجادوا ووفوا الموضوع حقه من البحث والدراسة وهم : « قلة » كما أعلم ويعلم المختصون ، وفي الوقت نفسه نضرب صفحاً عن التعرض للمتطفلين الذين تعرضوا لهذه الرسائل ، في وقت لا تربطهم أية رابطة بالفلسفة ، وليس لهم أية صلة بموضوع إخوان الصفاء لا من قريب أو بعيد ، والحقيقة :

فإن تصدّيهم للموضوع لا يخرج عن كونه تطفلاً وحبّاً في الظهور ، ولذلك حادوا عن الهدف ، وأخطأوا المرمى ، وتاهوا في مجاهل الفلسفة ، وراحوا يخبطون فيها خبط عشواء دون أن يجدوا سبيلاً أو مدخلاً يؤدي بهم إلى الحقيقة المنشودة ، وإننا بعد كل هذا نعذرهم ، ونرثي لحالهم ، ونشفع بهم باعتبارهم ليسوا من ذوي الإختصاص ، ولكننا لا نعفيهم من اللوم والعتاب ، لأنهم تصدوا لموضوع ليس من شأنهم ، ولا يدخل في اختصاصهم ولا أستثني ـ بعض المتعصبين المتزمتين ، الذين توجهوا للموضوع عن سابق قصد وتصميم ، وأبوا إلاّ إظهار حقدهم وعصبيتهم المتوارثة ، وسمهم الزعاف دون وازع من ضمير أو وجدان ، وكأني بهم كانوا على موعد مع القرون الوسطى .

ومهما يكن من أمر . . . فلا يسعني إلاّ أن أنحني بخشوع أمام ذكرى أولئك الذين

توجهوا للموضوع خدمة للعلم ، فهم قد تعبوا وجدُّوا وخاضوا مجالات الفكر الطافح بالعلوم والمعرفة محاولين قطع سهولها الشاسعة الغنيَّة بالظلال والأنوار والخيرات ، تقودهم الرغبة الصادقة بسبر غور قضية مهمة والوصول إلى حقيقة محتجبة وراء سجف الغيب ، وسواء كتب لهم النجاح أو الفشل ، سواء أخطأوا أو أصابوا فقد استحقوا الثناء والتقدير ، وإن واجبنا يقضي علينا بأن نذكرهم بالخير ، وأن نقدس ذكراهم العطرة بالصمت والإجلال .

إن أقدم دراسة عن رسائل إخوان الصفاء هي المقدمة التي كتبها باللغة الإنكليزية المستشرق « توماسون » «T. T. Tomason» سنة ١٨٣٧م وقد ضمنها فصلاً مقتطفاً من رسائل إخوان الصفاء سمَّاه « تحفة إخوان الصفاء » وموضوعه : « تداعي الحيوانات على الإنسان عند ملك الجن » . وجاء بعده المستشرق « نوورك » «Nowork» فنشر سنة ١٨٣٧م في مدينة برلين خلاصة وافية عن موضوع إخوان الصفاء مع ترجمتها للألمانية ، وتبعه المستشرق « ديتريصي » «F. Dietricis» فتعرض سنة ١٨٧٩م لرسائل إخوان الصفاء في كتابه الذي صدر في برلين بثمانية أجزاء ، وعنوانه « العلوم الفلسفية عند العرب » ومن الملاحظ أن دراسته وعناصر موضوعه تركَّزت بالدرجة الأولى على رسائل إخوان الصفاء نفسها . وفي عام ١٨٨٦ م أصدر في برلين كتاباً سمَّاه « خلاصة الوفاء في اختصار رسائل إخوان الصفاء » ، ثم جاء - « غولد زيهر » «Gold Zeiher» فتناول موضوعهم ببحث ظهر عام ١٨٨٨م في مدينة هالي «HALLE» بألمانيا ، وقد عرَّف عنهم المستشرق «لان - بول» «Lane-Pool» سنة ١٨٩٣م ببحث موجز طريف ، وفي عام ١٨٩١م ناقش « باربيت دي مينار » «Parbiet de Meinar» موضوعهم مناقشة علمية - تاريخية ، أمَّا « ويمر » «Weimer» فأضاف إلى ترجمته لبعض الرسائل مقدمة جاء فيها عرض موجز لفلسفتهم ، وفي عام ١٩٠٣ ظهر عن الرسائل دراسة كتبها المستشرق « دي بوير » «De Boer» في مدينة لندن ، وحذا حذوه « ماكدونالد » «Macdonald» وجاء «كازانوفا» «Cazanova» فكتب عنهم سنة ١٩١٥م دراسة مفيدة . أمَّا المستشرق «ماسينيون» «L. Massignon» فأتى على ذكرهم ببراعة عندما كتب عن الإسلام والصوفية والغزّالي ، ثم أضاف دراسة ثانية مستقلة عن تاريخ وضع رسائل إخوان الصفاء ، وكذلك فعل « تريتون » «Tritton» ، «ايفانوف» «Ivanow» في العام نفسه ، وهكذا «نيكولسن» «R. A. Nicholson» الذي ألقى عنهم محاضرة في جامعة «كمبريدج» ١٩٤١م ، وفي العام نفسه كتب عنهم «سترن» «S.M.Stern» دراسة طويلة في دائرة المعارف الإسلامية في أكسفورد ،

وعند ذكر المستشرقين الذين درسوا رسائل إخوان الصفاء ، لا بد لنا من التطلع وإلقاء نظرة على ما كتبه كل من «دي ساسي» «De sacy» و «ستانيسلاس غويارد» «S. Guard» فكلاهما عالج الموضوع وجال في مجاله الواسع ، أمَّا المستشرق «كوربان» «H. Corbin» فقد وفَّاهم جزءاً من حقهم في كتابه «تاريخ الفلسفة الإسلامية»[1] . وهكذا فعل المستشرق «إيف ماركيت» «Ives Marquet» فقد أجاد وكان موضوعياً في التحدث عنهم في كتابه عن جابر بن حيَّان وعلاقته بهم .

هذا بالنسبة للمستشرقين أمَّا الباحثون العرب ، فيعتبر الدكتور طه حسين أول من كتب عن رسائل إخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء ، وقد ظهرت كتابته في مقدمة الطبعة المصرية للرسائل التي تمت في القاهرة سنة ١٩٢٨م . ولا بد من القول : بأن كلمة الدكتور طه حسين بالنسبة لتاريخها تعتبر أحسن ما كتب عن الرسائل وخاصة في تلك الفترة البعيدة ، وقد اعترف لي المرحوم الدكتور طه حسين أثناء مقابلتي له في منزله بالقاهرة سنة ١٩٥٨م بأن كلمته تلك لم تكن سوى محاولة للتعريف عن الكتاب وعن جنسيته وعقيدة مؤلفيه ، في وقت لم تكن الرسائل معروفة في أوساط العلماء والباحثين ، وبالفعل فإن الدكتور قد وفق بالكشف عن عقيدة المؤلفين ، وليست هذه المهمة بالأمر السهل في تلك الفترة الغامضة ، وخاصة عندما كانت الدراسات والمخطوطات الإسماعيلية في طي الكتمان أو قل في كهف التقية ، إذ لم يكن هناك أي مجال للعثور عليها أو دراستها أو مقابلتها برسائل أخرى لمؤلفين إسماعيليين ، وكل هذا عكَّر الأجواء وأطفأ الأنوار أمام الباحثين العرب والمستشرقين ، وجعلهم يتخبطون في دياجير الظلام على غير هدى .

أمَّا العلاَّمة « أحمد زكي باشا » كما أطلقوا عليه فمع احترامي لعلمه وأدبه فإنه لم يكن موفقاً في عرضه وأثبت أنه شذَّ عن الموضوع وابتعد عن الحقيقة ولم يستطع خرق جدار الظلام الذي أسدل عليه ممَّا جعله أعمى عن الحقيقة ، وخلاصة القصة : إن أحد الإسماعيليين اليمنيين المقيمين في مدينة « كلكتا » الهندية واسمه « أحمد بن محمد شرف» قام بطبع الرسائل سنة ١٨١٢م وقد ذكر بأن مؤلف الرسائل هو الإمام «أحمد بن عبد اللّه » وهذه الرواية صحيحة ولا غبار عليها ، لأن الناشر اليمني استند على مصدر إسماعيلي تاريخي هو كتاب « عيون الأخبار » لمؤلفه الداعي « إدريس عماد الدين » ، ومن الغريب والمضحك أن ينبري الباشا إلى نفي وجود إمام يسمَّى « أحمد بن عبد اللّه »

(١) صدر هذا الكتاب معرباً في منشورات عويدات وقد قدم له الدكتور عارف تامر والإمام موسى الصدر/ الناشر.

كما أنه من الجهل إنكار وجود كتاب تاريخي مشهور إسمه « عيون الأخبار » لمؤلفه المؤرخ الكبير الداعي الإسماعيلي « إدريس عماد الدين » .

لقد كان من الواجب على العلاَّمة الباشا أن يسأل ذوي الاختصاص قبل أن يرتكب مثل هذه الخطيئة وقبل أن يطلع على العلماء بهذا الرأي السخيف .

ومن الذين كتبوا عن إخوان الصفاء أيضاً المرحوم « محمد كرد علي » في مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق ، والدكتور عمر فروخ الذي كتب عنهم دراسة مطوَّلة سنة ١٩٤٥م، ويدخل في عداد الباحثين الذين تناولوا الرسائل بالبحث «عمر دسوقي» و « حسين همذاني » و « عبد اللطيف الطيباوي » و « جبور عبد النور » و « عادل عوا » و « جميل صليبا » في رسالة « الجامعة » .

وكتب عنهم «محمد غلاَّب» مقالةً في مجلة المشرق اللبنانية سنة ١٩٤٥م ، وتبعه « يوحنا قمير » في العام نفسه ، ثم « يوحنا الفاخوري » ١٩٤٧م ، و « نعمة اللَّه العنداري » و « محمد لطفي جمعة » في كتابه تاريخ فلاسفة الإسلام، و «عبد الحميد سامي بيومي » و « سليم الجندي » و « سليمان صائغ » و « قدري حافظ طوقان » و « محمد يونس الحسيني » و « أديب عبَّاس » و « عبد الرسول الحبشي » و « عبد الحميد موسى » و « محمد يحيى الهاشمي » و « عبد الحميد الدجيلي » و « محمد كامل حسين » و « محمد مصطفى حلمي » وهناك غيرهم وهم أكثر من أن يحصى عددهم .

من هم إخوان الصفاء ؟

كنَّا بالأمس على يقين عندما قلنا : بأن جماعة « إخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء»[1] لغزٌ مبهم في التاريخ الإسلامي صعب حله ، وسرٌّ من أسرار العقائد الشيعيَّة عسر فهمه ، وكنز فكري ثمين أغلقت الأبواب دونه ، وتضاربت الأقوال فيه ، وتشعَّبت الأبحاث حوله ، حتى أصبح مثاراً للجدل وللتخمين لدى العلماء والباحثين ، ومحلاً للاستنتاج العقلي الذي قلَّما أدَّى إلى نتيجة تميط اللثام ، أو هدف ينير السبيل ويكشف عن الحقيقة المحتجبة وراء ستار كثيف من الكتمان ، ولعلَّ إخوان الصفاء وهم الدعاة الذين كانوا

(١) راجع كتابنا المسمَّى : « حقيقة إخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء » ـ منشورات المطبعة الكاثوليكية بيروت ـ لبنان ١٩٥٨م .

يعملون تحت إمرة أئمة يتحدرون من عترة الرسول الكريم ، ويخططون لأعمال بعيدة تعمدوا إخفاء أسمائهم عن عامة الناس حرصاً على حياتهم المهددة من ملوك وخلفاء ذلك العصر ، ومبالغة في كتمان هدف رغبوا ألاَّ يصل الطالب إلى معرفته بسهولة ، وقد يكون زهداً في شهرة اعتقدوا أنها زائلة ، أو طمعاً في ثواب طمعوا بالحصول عليه .

أجل . . . . ليست دراسة موضوع رسائل إخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء ، من الأمور السهلة في تاريخنا العربي الإسلامي . . . فهذا الموضوع لفت انتباه وأنظار فريق كبير من العلماء والباحثين ـ والمستشرقين منذ بدء النهضة العلمية الحديثة ، وكان جميع الذين جالوا في مجاله الواسع مجمعين على القول :

بأن رسائل إخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء هي أغزر مادة فلسفية ، وأقوَم تحفة علمية ، وأثمن موسوعة فكرية ، ضمَّت في دفتيها البديع والإيجاز والبيان والبلاغة والحكمة . أمَّا العلوم والفنون التي وردت فيها فهي : الفلك والرياضيات والعدد والموسيقى والهندسة والطب والأدب وعلم الحيوان والتربية والشعر وعلوم أخرى ابتدعها العقل الإسلامي في عصر مبكِّر من عصور الإسلام ، وفي فترة كانت الفلسفة تعتبر ضرباً من الفكر والإلحاد . أمَّا المتنورون فقالوا :

بأنها تمثل الرقي العقلي والتطور الفكري ، وأنها أقدم مصدر في الفلسفة الإسلامية وفي الثقافة الواسعة والتبسيطات للمعضلات الفلسفية ، بل أغنى موسوعة في العلوم والآداب الناطقة بسهولة الأسلوب ومرونة الإستدلال .

لقد سبق لي أن ذكرت في أكثر من دراسة كتبتها عن الموضوع الذي نحن في صدده بأنه لا يمكن لأي باحث في رسائل إخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء مهما أوتيَ من علمٍ وذكاء ، أن يفي الموضوع حقه ، أو أن يصل إلى الهدف الأسمى والغاية المثلى ما لم يضع نصب عينيه المصادر الإسماعيلية التي تؤلف عنصر الموضوع ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بفصوله وأبوابه وموضوعاته ، وهذه المصادر كانت مفقودة وبعيدة عن متناول أيدي العلماء والباحثين . . . ومن الواضح أن ظهورها من كهف تقيتها لم يتعدَّ سنين معدودة ولعلَّ هذا هو عذر الباحثين الذين لم يقدّر لهم الإطلاع عليها ، والتعمق في دراستها ، ومقابلة نصوصها الفلسفيَّة بنصوص أخرى من كتب الإسماعيلية .

والحقيقة :

فإننا على ضوء هذه المصادر نستطيع أن نقول : بأن إخوان الصفاء وخلاَّن الوفاء

هم الأسس والدعائم التي شاد الإسماعيليون عليها بناء فلسفتهم ، فكانت أول بذرة فلسفية نمت وترعرعت في ظل الفكر الإسلامي . . . وهذه بعض الأدلة :

قال المستشرق « كازانوڤا » «Casanova» :

« أؤكد بأن آراء الإسماعيلية توجد كلها في رسائل إخوان الصفاء » .

وقال «ديفروميري» «M. C. Defromery» :

إن زعيم الإسماعيلية « سنان بن سليمان » الملقب بـ « راشد الدين » تناول علوم الفلسفة وأطال نظره في كتب الجدل والخلاف ، وأكبَّ على مطالعة إخوان الصفاء .

وقال « ماكدونالد » «Macdonald» :

يجب أن نكون على ذكر من أن الإسماعيليين لم يكونوا عصابات من اللصوص تنشر الرعب بأساليبها الشنيعة ، ولكن كلا الفريقين أو الفرعين الشرقي والغربي قد عكف على العلم ، وربما وجد في حصونهم الجبلية أشد أنواع العناء في طلب العلم الصحيح ، وحينما استولى المغول على قلعة «ألَمُوت» وجدوها غنيَّة برسائل إخوان الصفاء .

وقال الدكتور عبد اللطيف الطيباوي وهو ممن عالج موضوع إخوان الصفاء :

لا أراني إلَّا مصيباً في القول بأن فلسفة الإسماعيلية أكثرها مبثوثة في رسائل إخوان الصفاء ، فعليه فمن الجور أن يُرمى الإسماعيليون بالكفر والإنحطاط الخلقي كما جاء في فتوى ابن تيميَّة .

وقال المؤرخ اليمني الكبير « إدريس عماد الدين » المتوفى سنة ٨٧٢هـ . في كتابه « عيون الأخبار[1] » :

وقام الإمام التقي «أحمد بن عبد اللَّه[2] بن محمد بن إسماعيل بن جعفر « الصادق » بن محمد «الباقر» بن علي «زين العابدين» بن الحسين بن علي بن أبي طالب،

(١) عيون الأخبار ـ إدريس عماد الدين ـ المجلد الرابع صفحة /٢٢٩/ .
(٢) هذا الإمام هو الذي أتمَّ تصنيف رسائل إخوان الصفاء مع كبار دعاته ، لأن والده عبد اللَّه بن محمد مات قبل أن يتسنَّى له إنجازها ويقال إن رسالة « الجامعة » من تأليفه .

بعد أبيه بأمر الإمامة ، وبثَّ دعاته في الآفاق من مدينة « سليمة » ، واتصل به الدعاة ودعوا إليه وهم مخفون لمقامه كاتمون لإسمه وكان المأمون حين احتال على « علي بن موسى الرضى بن جعفر » ظنَّ أن أمر اللَّه قد انقطع ، وحجّته قد ارتفعت فحين ظنَّ ذلك الظن ، ووهم ذلك الوهم سعى في تبديل شريعة محمد وتغييرها ، لكي يرد الناس إلى الفلسفة وعلم اليونانيين ، فخشي الإمام أن يميل الناس إلى ما زخرف المأمون عن شريعة جده ، فألَّف رسائل إخوان الصفاء .

وذكر مؤلف كتاب « عيون الأخبار » أيضاً فهرست الرسائل على التمام . فقال :

هذه فهرست الرسائل التي ألفَها الإمام ، وقد جمع فيها أنواع العلوم الفلسفيَّة والهندسية ، وجعل « رسالة الجامعة » الغاية التي يتبين منها المراد ، ويتضح المعنى للمرتاد ، وقصرها على خلصاء شيعته ، وخيرة خاصته ، وإنمَّا ألَّف الإمام أحمد تلك الرسائل لتقوم الحجة على المأمون وأتباعه ، حين انحرفوا عن علم النبوة .

وقال الفقيه اليمني الكبير ، شرف الدين جعفر بن محمد بن حمزة المتوفى سنة ٨٣٤هـ . في رسالته المَوسومة « الموقظة » :

حتَّى همَّ المسمَّى بالمأمون أن يردَّ الأمة إلى دين القول بالنجوم . . . وقال :

ما جاء محمد إلَّا بناموس ملك به الناس ، وحقيقة وأساس ، حتى أظهر « ولي اللَّه وابن رسول اللَّه » « رسائل إخوان الصفاء » وفيها ما تحيَّر به جميع العالم من العلوم في كل فن والاستشهاد على شريعة الرسول وهو في كهف التقية مستتر ، ودعاته الباقون مغرقون لتلك الرسائل في كل شهر وقطر .

وقال السيد « غلام أحمد القادياني » في رسالة « العسل المصفَّى في تحقيق اسم مصنف رسائل إخوان الصفاء » :

ولمَّا خشيَ الإمام « أحمد بن عبد اللَّه » أن يزيغ المسلمون عن الشريعة المحمدية إلى علوم الفلسفة ألَّف رسائل إخوان الصفاء وخلَّان الوفاء ، وجمع فيها من العلوم والحكمة والمعارف الإلٰهية والفلسفة والشريعة .

وجاء في كتاب «قلائد الجواهر »[1] المصنَّف في اللغة الفارسية ما يلي :

(١) « قلائد الجواهر » صفحة ٢٧ .